مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 09 / العـدد: 01 (2023)، ص 782- 799

تأثير الخطاب الصوفي في الدّفع بالمقاومة الشعبية ضدّ الاستعمار الفرنسي (الشيخ بوعمامة وحركته الصوفية أنموذجا)

The impact of Sheikh Bouamama's Sufi discourse on popular resistance against Frensh colonialism (Sheikh Bouamama and his movement as an example)

عبد الكريم طهير[1*]

جامعة حسيبة بن بوعلي (الجزائر)، a.tahir@univ-chlef.dz 1

تاريخ الاستلام: 2023/02/12 تاريخ القبول: 2023 /06/15 تاريخ النشر: 2023 /06/17

ملخص:

يبحث هذا المقال في شكل الخطاب الصوفي، ودوره في الدفع بالمقاومة الشعبية ضدّ الاستعمار الفرنسي، مع التركيز على المقاومة الشيخية للشيخ بوعمامة، الذي أسس لطريقة إيمانية انتشرت في الجنوب الجزائري، وفي الهضاب العليا الغربية الجزائرية، وغرب الجزائر، وكانت هذه الطريقة منفتحة على الجميع، فكان من نتائج ذلك أن تزايد عدد أتباعها وأنصارها، وهو الأمر الذي جعل قائدها الروحي الشيخ بوعمامة يحدد هدفا رئيسيا سعى إلى تحقيقه، وهو مقاومة الاستعمار من خلال شحن القبائل بالإيمان والجهاد في سبيل الله، باعتماد خطاب صوفي روحي ساهم في تنمية الوعي السياسي والوطني لمجابهة الاحتلال الفرنسي من خلال المقاومة المسلحة.

كلمات مفتاحية: الخطاب الصوفي. الطريقة الشيخية، الاستعمار الفرنسي. الشيخ بوعمامة.، المقاومة الشعبية.

Abstract:

This article investigates the form of Sufi discourse and its role in driving popular resistance against French colonization, with a focus on Sheikh Bouamama's resistance, who established a faith-based approach that spread throughout southern Algeria, the Algerian High West, and western Algeria. This approach was open to all, resulting in an increase in its followers and supporters. This made Sheikh Bouamama's spiritual leader set a main goal to achieve, which was to resist colonization through charging tribes with faith and jihad in the name of God, relying on a spiritual Sufi discourse that contributed to developing political and national awareness to respond to French occupation through armed resistance.

Keywords: Sufi discourse; Sheikha method; French colonialism; Sheikh Bouamama; The Popular Resistance.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

يسعى هذا المقال للوقوف عند خطاب الشيخ بوعمامة وتأثيره في تشكل المقاومة الشعبية ضدّ الاستعماري الفرنسي، وأسباب التفاف الناس حوله، هل هي دينية روحية ؟ أم مرتبطة بغياب سلطة سياسية مقاومة، وماهي مصادر الشيخ بوعمامة في التأسيس لسلطة خطابه الصوفي، كما نهدف من وراء هذا المقال إلى الوقوف عند مدى نجاح الخطاب الصوفي البوعمامي في نشر وعي المقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي ؟ وقد توصلنا من خلال البحث إلى أنّ خطاب المقاومة للشيخ بوعمامة كان بسيطا تميّز بطابعه الإصلاحي الديني، لكنّه كان أقرب إلى سلطة سياسية استطاعت أن تدفع بالمقاومة المسلحة ضد المشاريع الاستعمارية الفرنسية بالمنطقة.

2. التعريف بالخطاب ومكوناته

1.2 تعريف الخطاب

تتعدد التعاريف اللغوية والاصطلاحية للخطاب، وقد وردت في التراث العربي اللغوي على أنّها من الفعل خطب، وقد ورد عند أحد اللغويين إنّ الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أنّ الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب (ابن منظور د ت 145-155)، وخطب الخاطب على المنبر خَطابة وخُطبة(الفيروز دت 83) ، كما وردت بمعنى الكلام، وبمعنى الرسالة (ابراهيم 1972 283) وأهم التعاريف الجامعة هي التي تعرفه على أنّه: "**قول يفترض متكلما ومخاطبا، ويتضمن رغبة الأوّل في التأثير بشكل من الأشكال وهذا يشمل الخطاب الشفهي بكل أنواعه ومستوياته ومكوناته الخطية، ويشمل وسائل الخطاب الشفهي وغاياته كالرسائل...أي كل خطاب يتوجه به شخص إلى آخر معبرا عن نفسه بضمير المتكلم** (بن تريدي، 2010 144).

2.2 مكونات الخطاب

تتمثل المكونات الأساسية للخطاب في ضرورة وجود مرسل ومرسل إليه، وهذا الخطاب عليه أن يحمل مقصد التأثير وبدون هذا الشرط لن تكون العملية التواصلية، أمّا لغة

الخطاب فهي الدالة على نوعه، لذلك يختلف نوع الخطاب باختلاف مجالات استخداماته الأدبية، اللسانية، السياسية، وعيرها، فأصبح الخطاب يوصف بالخطاب الأدبي، الخطاب السياسي، الخطاب الإعلامي، الخطاب الصوفي...

أمّا عن الخطاب الصوفي فهو نتاج المتصوفة أو رجال التصوف أوجدوه انطلاقا من تجربتهم الصوفية، كما أنّه يمكن أن يكون تعبير لغوي يجسد تجارب وجدانية وعرفانية، وهو بذلك مجال من المجالات الأدبية بغض النظر عن الخلفيات الدينية والإيديولوجية والمضامين الفلسفية (كروش دت 144-145).

1- البيئة التي أنتجت خطاب بوعمامة

يرتبط خطاب المقاومة للشيخ بوعمامة بالبيئة التي نشأ فيها الشيخ، وهي بيئة ثرية تتعلق بنسبه، وتربيته، وطموحه، وتأثره بمحيطه الديني المحلي والخارجي، هذا إضافة إلى الوسط الجغرافي الذي عاش به بوعمامة وأتباعه، وما كان يفرضه من نمط اقتصادي واجتماعي، ناهيك عن ما شكله الاستعمار الفرنسي من تهديد حقيقي في جميع المستويات الدينية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية.

بوعمامة هو سليل سيدي الشيخ "المرابطين" الذين كان تأثيرهم يمتد من ورقلة شرقا إلى فكيك غربا، والذين كانوا هم الأسياد في هذه المنطقة حتى سنة 1830م (خليفي 2010 186)، لذلك فإنّ قيادة بوعمامة للطريقة الشيخية (مبخوت 2008 351) جعلته يحظى باحترام وتقدير كبيرين من كلّ أقاربه وأتباعه، واعتبروه من أولياء الله الصالحين، وزعيمهم الروحي الذي ورث البركة عن أجداده، فكانت شهرته ونفوذه في المنطقة كبيرتين، فتكاثر عدد أتباعه ومريديه وإخوانه، ومركزه في أوساط القبائل الجزائرية وخاصّة الصحراوية منها، فتكاثر عدد زواره لتقديم الزيارة(الهدايا) منهم قبائل الترافي، حميان، أولاد زياد، الأغواط والأحرار، وغيرهم.

بوعمامة هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن سيدي إبراهيم بن التاج، المعروف ببوعمامة، وبذلك فالشيخ بوعمامة ينحدر من أولاد سيدي التاج، وهم من فرع

الغرابة الذين استقروا بالمغرب الأقصى بعد إبرام اتفاقية لالة مغنية 1845م، ولد حوالي 1838م أو 1840م بقصر الحمام الفوقاني في فيقيق، وفي حوالي 1874م سافر مع أبيه إلى المقرار التحتاني بجنوب الجزائر الغربي حيث أسس أبوه زاوية هناك تربى وكبر على تعاليمها ابنه بوعمامة (زوزو 1981 37) .

تعلم القرآن الكريم منذ نعومة أظافره متأثرا بأجداده، حيث انتقل إلى فجيج، حيث واصل تعليمه على يد عدد من الفقهاء، أشهرهم محمد بن عبد الرحمان، أحد مقدمي الطريقة الشيخية، فتلقى مبادئ الكتاب والسنة الشريقة، ليزداد اطلاعا، وينهل بالورع والحكمة، وسداد الرأي، وحسن التدبير، وفي هذه المرحلة انكب كذلك على دراسة التصوف والطرق الصوفية التي كانت لها التأثير العميق على حياته وعقيدته وتصوره، حيث ذاع صيته بين القبائل فحظي بالاعتراف بالمشيخة(بلغيت 2000 185).

كان الشيخ بوعمامة رجل دين متحمس، حيث تمكن سنة 1875م من تأسيس زاوية دينية بمغرار التحتاني (القريبة من مدينة عين الصفراء) على الطريقة الشيخية Henry) (1884 ، وبذلك أعاد إحياء الطريقة الشيخية التي أسسها عبد القادر بن محمد المتوفى في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، وقام بتجديدها حتى أصبحت تعرف بالبوعمامية، لتكون أحد أهم عناصر الوحدة (خليفي، 2006 83)

3. مصادر الشيخ بوعمامة في التأسيس لخطاب المقاومة

تكمن مصادر الخطاب الصوفي عند الشيخ بوعمامة في **تجربة مقاومة أولاد سيد الشيخ** التي كان جزءا منها ابتداء من 1864م، فقد كانت دوافع هذه المقاومة تعود للنظام الاستعماري وسوء معاملة السكان وسياسة المكاتب العربية اتجاههم، حيث لم يكن ضباط هذه المكاتب يراعون تقاليد ومشاعر السكان إلا في حدود مصلحة الاستعمار الفرنسي وسياساته الاستيطانية، إضافة إلى قيام السلطات الاستعمارية الفرنسية بإرهاق كاهل السكان بالضرائب والغرامات ومصادرة أملاكهم العقارية والحيوانية، إضافة إلى قيام

السلطات الاستعمارية الفرنسية بحملات تشهير وتحقير ضد الجزائريين بواسطة الصحافة، والمعمرين وأجهزة الدولة.

وقد استهدفت السياسة الاستعمارية عائلة أولاد سيدي الشيخ نفسها فقد قامت بإنزال مركز العائلة إداريا عندما رفضت أن تخلع سي بوبكر وسي سليمان ولد حمزة لقب "الخليفة"، واستبدلته بلقب "الباشا أغا"، وافتكت عدة مناطق من إدارتهم، ووضعتها تحت قادة جدد مستقلين يتبعون ضابط المكاتب العربية في البيض وغيرها (بوعزيز 1980 176-177) ، وكان الهدف من هذه السياسة الحد من سيطرة أولاد سيدي الشيخ الدينية والدنيوية على المنطقة، وإرغامها على الانضواء تحت السيطرة الفرنسية بالجزائر لاسيما الفرع الشرقي، وهو الأمر الذي دفع بهم إلى إعلان الانفصال عن سلطات الاحتلال الفرنسي ومحاربتها (مبخوت 2008 345-355).

وقد كان اعتداء جنود الصبايحية التابعين للمكتب العربي بالبيض على سي فضيل كاتب سي سليمان زعيم أولاد سيدي الشيخ السبب المباشر لاندلاع مقاومة أولاد سيدي الشيخ، فاستقال سي سليمان من منصب الباشاغا، وعقد مجلسا مع أفراد عائلته وأعلن الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي (Trumlet 1879 6) فتفاقمت الأحداث في منطقة الحدود المغربية الجزائرية ما أدى إلى دخول فرنسا والمغرب الأقصى في مفاوضات انتهت بتعيين الحاج العربي بن الشيخ بن الطيب كزعيم لفرع أولاد سيدي الشيخ الغرابة الذين كانوا يعتبرون مغاربة وفق بنود اتفاقية لالة مغنية 1845م (خليفي، 2006 44).

إنضمت إلى هذه المقاومة تحت قيادة سي سليمان بن حمزة قبائل عديدة من بينها أولاد زياد الغرابة والشراقة، دراقة الغرابة والشراقة، وقبائل الشعامبة إضافة إلى أهالي القصور المجاورة لقصر الأبيض سيدي الشيخ كقصر غاسول، اغواط الكسل، ومن بين المواقع التي حقق فيها أولاد سيدي الشيخ انتصارات كبيرة موقعة عوينة بوبكر في 18 أفريل 1864م التي استشهد فيها سي سليمان بن حمزة، ومعركة الشلالة 1865، ومعركة أم الدبداب سنة 1869م، وغيرها، واجه أولاد سيدي الشيخ القوات الفرنسية ببسالة إلا أنهم

لم يحققوا عليها انتصارات تذكر، ولكنهم تمكنوا من إيقاف توسع الاحتلال الفرنسي نحو الجنوب ولو لفترة من الزمن (مبخوت 2008 355).

تمكنت السلطات الاستعمارية من القضاء على مقاومة أولاد سيدي الشيخ الأولى التي دامت أكثر من 25 سنة، واستطاعت استمالة قادتها وزعمائها الدينين، كما وظفت عددا لابأس به من الفرنسيين والمعمرين بمنطقة ألاد سيدي الشيخ، كما قامت بمصادرة جميع أراضي الأهالي عنوة، بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة عليهم، وجعلها همزة وصل بين الجزائر الشمالية والجنوب، وذلك بربطها بخط حديدي(السكك الحديدية) (Garrot 1910).

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أنّ تلك الممارسات الاستعمارية ستجعل الشيخ بوعمامة لاحقا يؤسس لخطاب على مخلفات الاستعمار وأثاره الدينية والاقتصادية والاجتماعية المدمرة، فأعلن الجهاد ضد الفرنسيين الكفرة بعدما تمكن من جمع شمل القبائل، وبعد أن أرسل إليهم المبعوثين يدعوهم إلى التعبئة ورصد الإمكانيات، لجمع المؤن والسلاح والذخيرة، وذلك عن طريق مقاديم الطريقة المنتشرين عبر كل من قبائل طرافي ورزاينة الأحرار، وقد وجدت هذه الدعوة صداها، إذ تمكن بوعمامة في وقت قصير أن يجمع حوالي ألفين وثلاثمائة جندي بين فرسان ومشاة.

4. مرتكزات الخطاب البوعمامي

استند بوعمامة في تعبئته للقبائل لمواجهة الاستعمار الفرنسي على خطاب ديني روحي صوفي يرتكز على القرآن والسنة وفق الطريقة الإيمانية التي كانت تدين النزاع الذي كان يقوم بين الطرق الصوفية، لذلك فالخطاب الإيماني البوعمامي لم يكن يستهدف أتباع الطريقة الإيمانية الشيخية فقط، بل كل أتباع الطرق الصوفية الأخرى فكان الخطاب بعيدا كل البعد عمّا انغمست فيه الطرق الأخرى من شعوذة، وكانت متشددا في مقاومة المنكرات والانحراف عن مبادئ الدين الحنيف، كما أن الخطاب البوعمامي لم يكن يعادي بقية

الطرق الصوفية المتواجدة على الساحة، بل كان خطابا يدعوا إلى تأليف القلوب (بلغيت 2000 186).

أكسب هذا الخطاب الديني الشيخ بوعمامة مكانة مميزة في أوساط القبائل منذ استقراره في بلدة مغرار التحتاني في منتصف السبعينات من القرن التاسع عشر، إذ ركز بوعمامة على ربط الصلة بالقبائل فجعلها تتعلق بالطريقة الشيخية، التي وسمها بطبعه الورع الثائر على الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها المنطقة كالأحقاد والضغائن بين الناس والفرقة بين الأهل، ومن خلال هذه الأوضاع اعتمد بوعمامة خطاب ديني إصلاحي كفيل بتغيير الذهنيات وجعلها تابعة لسلطته الروحية (خليفي، 2006 83).

استطاع الشيخ بوعمامة أن يجعل القبائل تستقر على هدف واحد، وينقلها من صراعاتها المحلية إلى الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، وتوظيف قدرتها العسكرية ضد قوات الاستعمار، فعمل من خلال مخاطبة القبائل على شحنها بالإيمان والجهاد في سبيل الله (بكاي 2012 – 2013 257) ، فكان دائما يذكر أتباعه بالأسباب الداعية إلى الجهاد، ومنها الفساد الذي جلبه الاستعمار إضافة إلى استحلاله الحرمات، والتضييق على أرزاق الناس.

فخطاب الجهاد الذي اعتمده بوعمامة خطاب قائم على وازع ديني قوي، ما كان له أن يكون لولا شدة إقناع الأتباع بضرورة محاربة قوات الكفر، ورفع شعار الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق، خاصة وأنّ بوعمامة مثّل قدوة وقائد روحي ثائر على الظلم والاضطهاد (بكاي 2012 – 2013 258) ، ويبدوا أنّ ذلك لم يكن أمرا تلقائيا، وإنّما نتيجة تدبير مرسوم، ولعل أكبر دليل على ذلك ما تذكره التقارير الفرنسية التي أشارت إلى كثرة الزوار الراغبين في اتباع الطريقة الشيخية وتجديدها، واكتساب محبة قائدها وطلب دعواته وبركاته، لذا رأى الفرنسيون في هذه المكانة التي حظي بها الشيخ بوعمامة، تهديدا لمستقبلهم في المنطقة، وخطرا يجب التخلص منه ولكنّهم لم يتمكنوا منه لأنه فاجئهم بإعلان المقاومة (بسايح 2010 10)(rinne 1985) .

5. مضمون الخطاب الشيخي البوعمامي ووسائله:

تميّز الخطاب الشيخي البوعمامي بطابعه الإصلاحي، نظرا لعوامل تتعلق بالفرقة السائدة بين القبائل وما أحدثه الاستعمار الفرنسي من تمزيق للبنية القبلية والاجتماعية للمنطقة، لذلك كان خطاب بوعمامة يهدف أوّلا إلى إصلاح الطريقة الشيخية من الداخل، ثم السعي إلى تقريب طريقته الصوفية من الطرق الصوفية الأخرى، فقد كان خطابه المتعدد الأوجه موجها لزعماء القبائل وشيوخ الزوايا، ولأنصاره، وكان يبتغي توحيد الصفوف لمواجهة الاستعمار الفرنسي ومخططاته، ولذلك اعتمد الشيخ بوعمامة على عدة وسائل لإيصال أفكاره، ومنها المواعظ، الرسائل، والوصايا.

1.5 الطابع الإصلاحي للخطاب

إنّ الغاية القصوى لخطاب الطرق الصوفية، هو الوصول إلى أوسع عدد من الناس الذين يمكن إقناعهم كمخاطبين" (سعد الله دت 53) ، وهو ما كان يسعى إليه الشيخ بوعمامة من خلال نشاطه في **المرحلة الأولى** لتهيئة المنطقة لمقاومة المحتل الفرنسي، فقد استطاع أن ينشر بين الناس دعوة إصلاحية جديدة من خلال التّعاليم التي كان يدعوا إليها، فاختار لدعوته الفضاء المناسب الذي يسهل فيه تلقي خطاب دعوته، وتبني الناس فكرة الخلاص من الوضع المزري الذي كانت تعرفه المنطقة (بلغيت 2000 186).

ففي هذه البيئة طرح الشيخ بوعمامة أفكاره الإصلاحية الدينية، التي كانت في نظره مسألة لا مفر منها، ومنها مسألة: "الولاية" و "البركة" التي طرح مسألة إعادة صياغتها، حيث يقول" **إنّ الولي أي كانت درجته في سلم الطريقة الصوفية، إذا ما حل به الموت، فإنّه بإمكانه أن يترك سبيل هذه الولاية أو البركة لأتباعه يتوارثونها كابر عن كابر إلى ما لا نهاية**"، وهو بذلك يرفض كليّا ما كان شائعا في الطرق الصوفية المعروفة في محيطه (بلغيت 2000 186).

اعتمد الشيخ بوعمامة خطابا يقوم على طرح نفسه بديلا للمريدين والمقدمين من كل الطرق الصوفية بالمنطقة، من خلال إعادة النظر في مفهوم الولاية والبركة، وكانت فكرة

الولاية والبركة عنده مسألة شخصية لا دخل في انتماء صاحبها لعائلة أو طريقة صوفية معينة، ولذلك ففي سبيله الجديد وطريقة فهمه للتصوف والطرق الصوفية: "**أن أولاد سيدي الشيخ الذين يعتقدون أنّ الولي الصالح سيدي الشيخ الذي يشكل مخيالهم الفكري وميراثهم الذي يتميزون به عن غيرهم هو من الناحية الإسلامية الخطأ الكبير**" (بلغيت 2000 186-187)، فإذا اعتقد كل واحد أنّ انتماءه لسيدي الشيخ قد ضمن له مكانا في الجنة فقد وقع في التناقض الصارخ أمام تعاليم القرآن الكريم، وسماحة ودعوة سيدي الشيخ نفسه (زوزو 1881م 187).

2.5 وسائل الخطاب الصوفي البوعمامي

اعتمد الشيخ بوعمامة في خطابه عل وسائل متعددة بغرض إيصال أفكاره إلى مختلف الأطراف الذين بإمكانهم استقبال الأفكار الداعية إلى المقاومة، وقد كانت الفكرة الأساسية تدور حول الجهاد، ولذلك فقد اعتمد على المواعظ التي يمكن اعتبروها خطابا دعويا وعضيا استهدف أتباعه لحثهم على الجهاد في سبيل الله ومواجهة الاستعمار الفرنسي.، لكنّه اعتمد كذلك على وسلتين مهمتين تمثلان أثرا تاريخيا مكتوبا لخطاب بوعماما وهما : الرسائل والوصية.

1.2.5 الرسائل:

- **الرسائل إلى شيوخ الزوايا وزعماء القبائل**

بعث الشيخ بوعمامة عدّة رسائل إلى آعيان القبائل، فخص أولاد سيدي الشيخ الغرابة، ثم أولاد سيدي الشيخ الشراقة بهذه الرسالة: **"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله: جماعتنا المحروسة بعين الرضا قبيلة بعد قبيلة من غير تخصيص، نعلمكم أعلمكم الله خيرا، على أمر الجهاد في سبيل الله بعدما فرق الكفار الفرنساويين بين الإخوة، وفسقوا في أرضنا، واستحلوا حرماتنا، أرادكم الله وأعانكم، وللخير والجهاد وفقكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"** (بكاي 2012 – 2013 258).

كانت هذه الرسالة إلى القبائل التي تشاركه النسب، وهي قبائل أولاد سيد الشيخ، والتي تلا عليها أمر الجهاد، ويبدوا أنّ الشيخ بوعمامة قد خطى خطوات كبيرة في سبيل توحيد الصفوف، والقضاء على الضغائن قبل إرسال الوفود بهذه الرسالة، وهو ما جعل

فكرة الدعوة إلى الجهاد أمرا يسيرا، لذلك جاء الخطاب بسيطا وواضحا ففيه دعوة صريحة للجهاد مع توضيح للأسباب الدافعة إلى ذلك وهي الفرقة التي أحدثها الاستعمار الفرنسي بين قبيلة أولاد سيد الشيخ، إضافة إلى السياسة الاستعمارية التي كان تأثيرها كبيرا على المنطقة.

والواضح أنّ الشّيخ بوعمامة كان يعوّل على الجهاد كمرتكز أساسي في خطابه مستخدما ألفاظا دينية كفيلة بإثارة الهمم، ومنها وصف المستعمرين بالكفار، ووصف أعمالهم بالفسق، وجرائمهم بالاعتداء على الحرمات، وجاءت كلمات الخطاب بنبرة ثائرة على الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها المنطقة، ومن خلال هذه الأوضاع استطاع بوعمامة أن يتفهم ذهنية المنطقة، ويتوصل إلى أن الوازع الديني وحده الكفيل بتغيير ما كان سائدا هناك من مآسي، فاستغل هذا الجانب وركز عليه، وجعله أداة توصل من خلالها إلى مبتغاه الأسمى، فدل الخطاب بتوقيته ومحتواه على أن الشيخ بوعمامة قد سيطر كليا على الذهنيات والعقول التابعة لسلطته، وأصبح فعلا يمارس سلطة روحية مطلقة (بكاي 2012 – 2013 257).

- **رسائل إلى المؤيدين له**

كانت الوجهة الثانية للرسائل إلى القبائل التي تشاركه فكرة الجهاد، فكانت قبيلة الشعامبة أبرز من راسلها، حيث جاء في رسالته"**إلى جماعتنا المحروسة بعين الرضا، كافة جماعة الشعامبة، أخص منهم الأعيان القائمين بأمر الزمان قبيلة بعد قبيلة من غير تخصيص، أرشدكم الله وأعانكم وللخير والجهاد وفقكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه وخيرته وإحسانه و إنعامه و أفضاله. وبعد، أعلمكم الله خيرا، نريد قدومكم ونتلاقوا(كذا) على أمر الجهاد في سبيل الله هذا الأمر نادا(كذا) المنادي من قبال(كذا) الله. ومن رسول الله، وبأمر رجال الله الصالحين، ومن أراد منكم ذلك. فإنّه يو افقه (كذا) وينعمه (كذا) يأتينا في الحليات هذا الموعد الصحيح الذي بيننا وبينكم. ومن لم يرده. فلا حاجة لنا به ولا يأتين(كذا) بعد ذلك والسلام...**" (خليفي، 2010 191).

ومن خلال هذه الرسالة يتضح اهتمام الشيخ بوعمامة بهذه القبائل، ورغبته في ضمها إلى صفه لقوة شكيمتها وإخلاصها للطريقة الشيخية، ولو لم يكن متأكدا من وقوفها معه لما كاتبها في هذا الأمر. وقد لبت قبائل الشعامبة النداء، وكانت سندا لزعيم المقاومة ضد الفرنسيين وأعوانهم، وعملت القبيلة معه بكل إخلاص، حيث غادر بعض من أفراد القبيلة

مواطنهم في كل من متليلي، ورقلة، المنيعة، سنة 1887م واتجهوا نحو دلدول حيث كان يستقر الشيخ بوعمامة. وأصبحوا تحت سلطته سواء خلال وجوده في دلدول بالجنوب أو بعد لجوئه إلى المغرب الأقصى(بوعزيز 1980 174) (خليفي، المقاومة الشعبية 2010 192).

راسل بوعمامة كذلك سكان الهقار طالبا منهم الانضمام إلى حركته، وقد تلقى منهم الرد في جويلية 1888م (خليفي، 2010 193) ، ورغم إنّ ردهم لم يكن إيجابي إلاّ أنّ علاقتهم به ظلت جيدة، حيث استقبل وفودا منهم قدموا له الزيارة و الهدايا (سعد الله 1986 345).

2.2.5 الوصية:

اعتمد الشيخ بوعمامة كذلك على الوصية ليتداولها خلفه، وهي تتكون من ثلاثة أعمدة مؤرخة قبل وفاته، في العاشر من شهر شعبان من سنة 1326هـ/1908م، وهي موجهة إلى أتباعه ومريدي طريقته، ويمكن اعتبارها خطابا موجها لهذه الفئة يتضمن مجموعة من الموضوعات الخلقية والدينية.

يستهل بوعمامة وصيته بعد الحمد لله والصلاة على النبي، والدعاء لمنتسبي الطريقة، والنازلين بها إلى ذكر القبائل، والطريقة ليسلم عليهم، ويخبر الجميع أنّه على وشك اللحاق بالرفيق الأعلى، ثم يبلغ أتباع الطريقة ومريديها بأنّه ترك ابنه سيد الطيب خليفة له على الطريقة، وذلك فيقول: "**فهو الكفاية في الأمور كلها الظاهرة والباطنية**" (بكاي 2012 – 2013 261).

ومن خلال الوصية بشر الشيخ بوعمامة الذين يمتثلون لأمره بالخير والفلاح في قوله:" **فمن كان على أمره ونهيه في الأمور كلها ليس يخصه (كذا) شيء من خير الدنيا والآخرة في المال والأولاد وجميع الحركات والسكنات**" وحذر كل خارج عنه رافض لأمره، يتوعد إياه بالخيبة والندامة والشر (بكاي 2012 – 2013 261).

يتطرق الشيخ إلى موضوع آخر من الوصية في دعوة اتباعه إلى تقوى الله في السر والعلن لأن تقوى الله هي الكمال في الدين والدنيا، وهي الهداية والفلاح لقوله تعالى "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى" وقد وعد الله المتقين بالجنة فقال:" إنّ للمتقين في جنات وعيون آخذين ما أتاهم ربهم.." والتقوى من صفات الأولياء في قوله سبحانه: "ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون"، والتقوى هي "**جماع الخيرات وحقيقة الاتقاء التحرزبطاعة الله عن عقوبته**" (القشيري 1957 52).

يدعوا الشيخ بوعمامة في وصيته هذه كذلك إلى عبادة الله في قوله: "**كونوا و اقفين لله لا لغيره بالجد والاجتهاد**" أي بتوحيده ونبذ ما سواه بالجد والمثابرة ليلا ونهارا يقول الله سبحانه وتعالى:" إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري" وقال أيضا: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".

يواصل الشيخ نصائحه قائلا: "**واجتهدوا في الخدمة الربانية التي أكرمكم الله بها**" لأن أتباع الطريقة ندبوا أنفسهم لعبادة الله الخالق، وخدمته أكثر من غيرهم، لذلك فإنّ هذا التوجه يعتبر إكراما من الله يجب شكره وحمده عليه بالاجتهاد، والمل لإرضائه (بكاي 2012 – 2013 262). كما أوصاهم بعمارة المسجد قائلا: "**وعمارة المسجد بالذكر دبر كل صلاة**" (بكاي 2012 – 2013 263) ذلك أنّ المسجد هو مكان اجتماع المسلمين، وهو إن يدعوا لذلك فإنّما يريد أن تبق كلمة اتباعه موحدة.

لم يرد من خلال هذه الوصية ما يشير إلى أنّ بوعمامة قد دعى أنصاره إلى مواصلة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، لكن ما جاء في الوصية من الدعوة إلى الوحدة والابتعاد عن التفرق والالتفاف حول شيخ الطريقة من بعده مؤشر على دعوة الناس على مواصلة مقاومة الاستعمار الفرنسي، كيف لا والشيخ بوعمامة من أهم الرافضين للاستسلام للاستعمار، وهو القائل حينما كان اقترح عليه بعضهم بعقد الصلح مع الفرنسيين "**وأعلمهم أنّهم إن سمعوا صوت البارود في قبري بعد موتي فليعلموا أنّني في حرب مع الفرنسيين** (بكاي 2012 - 2013 261).

6. أثر الخطاب البوعمامي على المقاومة

كان خطاب بوعمامة بسيطا لكنّه حقق خطاب بوعمامة على بساطته على أرض الواقع أهدافا عديدة، يأتي في مقدمتها الهدف الأساسي هو حشد الناس لمواجهة الاستعمار الفرنسي ومشاريعه الكبرى لفترة طويلة ناهزت الربع قرن، هذا فضلا عما حققه الخطاب على مستوى تحقيق وحدة قبائل أولاد الشيخ، والقبائل الصحراوية، وتمكن بوعمامة أن يجعل نفسه قائدا تلتف حوله القبائل، ويمكن إجمال الأثر الذي حققه الخطاب فيما يلي:

1.6- نجاح مشروع بوعمامة الاصلاحي

استطاع الشيخ بوعمامة بفضل خطابه الديني المعادي للاستعمار الفرنسي توحيد كلمة أولاد سيدي الشيخ بعدما تفرقت كلمتهم، بل واستطاع إقناعهم بضرورة تجديد الطريقة الشيخية، وبضرورة انفتاحها على الطرق الصوفية الأخرى، وبالتالي استطاع الشيخ بوعمامة أن يجعل هذه القبائل تستقر على فكرة أو هدف واحد، واستطاع أن ينقل اهتماماتها من الانشغال بالصراعات المحلية إلى الجهاد ضدّ الاحتلال الفرنسي، فعندما استتب للشيخ بوعمامة أمر المشيخة وأحكم قبضته على الزاوية، وصار له أتباع ومريدون وتلامذة ومجاذيب، سعى إلى تغيير ذهنية أتباعه بإخراجهم من الواقع الذي كانوا يحيونه من سيطرة فكر قطاع الطرق التي كان يشنها مخزن سلطان المغرب الأقصى، وتوظيف طاقاتها العسكرية ضد قوات الاستعمار الفرنسي، وكان يعتمد في ذلك على شحن هذه القبائل بالإيمان والجهاد في سبيل الله، حيث استطاع بتأثيره الروحي أن ينمي الوعي السياسي الوطني بدل القبلي في مجتمعه (بكاي 2012 – 2013 257).

كما استطاع الشيخ بوعمامة الإصلاح بين القبائل المتخاصمة، ومن ذلك أنّه توسط بين الطرفين المتخاصمين طوارق أزجار وأهقار، والشعامبة، وعقد بينهما اتفاقية سلم (خليفي، 2006 194)، وهو دليل على مكانة بوعمامة في الصحراء وبين هذه القبائل الكبيرة، ونجاح خطابه في التأليف بينهم، وقدرته على أن يجعل نفسه وهو بالصحراء سيدا مطاعا، يقبل النّاس نصائحه ويعملون بتوجيهاته.

فقد تمكن الشيخ بوعمامة عن طريق طريقته الصوفية البوعمامية تأثير كبير على سلوكات ومواقف القبائل، التي اتبعت طريقته، وكان أتباع الشيخ بوعمامة ومريدوه كأنّهم جنود الحق ذلك حسبما جاء في الطريقة الإيمانية، لا يغزون أحدا، بل يدافعون في حالة الغزو والأكثر من ذلك كله فإنّ الطريقة الإيمانية، كانت محفوظة في صدور المريدين والاتباع تكون حيث يكونون، ولا يكونون إلاّ حيث يكون الحق (بكاي 2012 – 2013 258).

2.6- قيادة بوعمة لمعارك كبرى ضد الاستعمار الفرنسي

خاض الشيخ بوعمامة بفضل إيمان أتباعه بمشروعه الإصلاحي والتحرري بمعارك طاحنة، فانضوى تحت راية جهاده الآلاف من المجاهدين(Bezy 1881 21) التي أصبحت لها قناعة راسخة بأنّها تحارب قوات الكفر، وتحمل شعار الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة

الحق، وعلى وجه أخص أن الجميع (الأتباع) متأكدين بأن الزعيم الروحي ليس هدف يصيبه إلاّ الإيمان الراسخ، ثم أنّه أثبت للملأ أنّه لا يسعى إلى تكوين زعامة سياسية، وإنّما كان تركيزه على أن يفهمه الجميع بأنّه قائد روحي ثائر على الظلم والاضطهاد (بكاي 2012 – 2013 -257 258)، وحتى حين عرض الفرنسيون على الشيخ بوعمامة التوقف عن القتال مقابل الجاه والمنصب له ولأبنائه، وألقوا القبض على ابنه البكر، وهددوه بقتله إذا لم يستسلم، لكنّه رفض دائما تلك العروض، بل لقد تخلى عن ابنه وفلذه كبده من اجل هدفه الأسمى، وقال:"**قطعوه وارموني بطوابقه، إلى كان إلا الخير ماندیرهش معاكم**" (بكاي 2012 – 2013 257).

كان أوّل لقاء بين قوات بوعمامة والقوات الفرنسية كان يوم 27 أفريل 1881 بموقعة سفيسفة جنوب عين الصفراء، أحرز فيها المجاهدون انتصارات خارقة Sari) 1981 93) ، الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى تنظيم أنفسهم لإخماد الثورة والحد من لهيبها، فأرصدت السلطات الفرنسية طابورا في منطقة "طفارا"41 35 ,74 p 1905 Graulle)).

كما تمكن المقاومون بقيادة بوعمامة من تحقيق الهزيمة على الجيش الفرنسي في معركة طاحنة يوم 19 ماي 1881م في منطقة مويلك بالقرب من قصر الشلالة برغم أنّ خسائر جيش بوعمامة كانت أكبر إذ تشير الإحصائيات أن عدد قتلى الجيش الفرنسي 37 قتيلا، بينما كان عدد ضحايا جيش بوعمامة مايقارب 300 شهيد(48 1905 Graulle) .

كانت ردة فعل السلطات الفرنسية قاسية خاصة منها معاقبة القبائل المشاركة في المقاومة، ممّا أرغم بوعمامة إلى الانسحاب، متجها نحو فجيج بالمغرب الأقصى، ليباغث القوات الفرنسية يوم 16 أفريل 1882، في شط تقري، ويكبد خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد (مبخوت 2008 360) ، لكنه أرغم بعد ذلك على مغادرة مسقط رأسه سنة 1883م والتوجه نحو واحات التوات، وانتهى به الاستقرار بواحة دلدول باقليم قورارة عام 1883م، ليستقر هناك إلى غاية 1894م، إذ قام باكتساب أنصار وأتباع جدد ليواصل بهم الجهاد، وبرغم أنّ المقاومة العسكرية لم تصل إلى هدفها الأساسي وهو القضاء على الاستعمار الفرنسي

بالمنطقة إلاّ أنّ بوعمامة ظلّ يكسب مزيدا من الأنصار ويحظى بثقة الناس باعتباره قطبا ربانيا صالحا، مما جعل السلطات الفرنسية تعمل على اكتسابه إلى صفها، حيث جرت محاولات عديدة للاتصال به عن طريق المفوضية الفرنسية بطنجة سنة 1892م للتفاوض حول قضية الأمان، لكن محاولاتها لم تجد نفعا (مياسي دت 361).

واصل بوعمامة منذ سنة 1895م من زوزفان بث دعوته للجهاد وتنقية الأجواء بين العشائر المتعادية، ثم استقر بفجيج المغربية سنة 1896م بعد أن اطمأن لنوايا السلطات المغربية، ورغم قلة العمليات الجهادية من قبله ضد الاستعمار الفرنسي خلال هذه الفترة إلاّ أنّ السلطات الاستعمارية حاولت كسب ود الشيخ بوعمامة من خلال مجموعة من المراسلات التي حاولت منحه الأمان مقابل مساعدتها على احتلال المناطق الصحراوية، ذلك أنّ الفرنسيين كانوا يعلمون قوة خطاب الشيخ بوعمامة ومدى تأثيره في أتباعه، لكنّ بوعمامة رفض ذلك، لأنّه كان يدرك نوايا الاستعمار الفرنسي، إلى أن باغتته الموت في منطقة وجدة سنة 1908 (مبخوت 2008 361).

7. خاتمة:

في الختام يمكن الجزم أنّ خطاب الشيخ بوعمامة برغم بساطته كان له تأثيره الكبير في استمرار المقاومة الشعبية ضدّ الاستعمار الفرنسي، لأنّه خطاب ارتكز على الوازع الديني بدرجة كبيرة، ممّا دفع بأتباع الطريقة الشيخية، واتباع طرق صوفية أخرى إلى الالتفاف حول الشيخ بوعمامة، لذلك يمكن القول أنّ الخطاب اتسم بطابع ديني روحي، كما لا يمكن إغفال الجانب السياسي في الخطاب، حيث مارس بوعمامة سلطة سياسية مقاومة تدعوا إلى تحرير الوطن من المستعمر، وذلك في ظل غياب سلطة دولة مقاومة، ولذلك يمكن القول أنّ خطاب المقاومة الشيخية كان ناجحا في نشر وعي المقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي.

كما أن إلمام الشيخ بوعمامة بطبيعة التحديات التي كان يواجهها بشكل دقيق وعميق جعله يركز في خطابه على الجوانب التي تؤكد على الإصلاح، محترما في ذلك البيئة التي نشأ فيها لإيمانه بأنها أساس القوة الروحية لأتباعه، وعليه فقد كان لزاما عليه استخدام الآليات الملائمة لذلك

الخطاب من موعظة وحكمة، بعيدا عن تلك الأطروحات التي كانت تؤسس لها السلطة الاستعمارية في الجزائر والقائمة على جعل رجل الدين يربط وجوده بالحياة الدينية دون الاهتمام بالحياة الدنيوية.

6- قائمة المراجع:

- **القرآن الكريم**

سورة يونس، الآية، 63، 62.

سورة طه، الآية 14.

سورة الذاريات، الآية 15.

سورة الذاريات، الآية 56.

- **المؤلفات:**

ابن منظور، د ت، تح: ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، لسان العرب، القاهرة، المكتبة الوقفية.

آبادي الفيروز، د ت، القاموس المحيط، تح: مجدي فتحي السيد، القاهرة، المكتبة التوفيقة ج1.

مصطفى ابراهيم، أحمد حسن الزيات، 1972م، المعجم الوسيط، إسطنبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ج1.

بن تريدي بدر الدين، 2010، قاموس التربية الحديث، الجزائر، دار راجعي للطباعة، د ط.

عبد القادر خليفي، 2010، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، الجزائر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية.

زوزو عبد الحميد، 1981م، ثورة بوعمامة 1881م- 1809م، الجزائر، (جانبها العسكري 1881م- 1883م).

خليفي عبد القادر، 2006، الطريقة الشيخية، وهران، دار الأديب للنشر والتوزيع.

بوعزيز يحي، 1980م، ثورات الجزائريين في القرنين التاسع عشر والعشرين، قسنطينة دار البعث.

سعد الله أبو القاسم، 1986م، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2.

القشيري أبو القاسم، 1957، الرسالة القشرية في التصوف، المطبعة الحجرية.

بن عدو عبد الله، دت، مظاهر الاتساق في الخطاب الصوفي، الرباط، مطبعة الأمنية.

- **الأطروحات:**

بكاي رشيد، 2012-2013، سلطة الخطاب الصوفي في الجزائر، أدوار التنظيمات الصوفية خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر من المقاومات الشعبية المسلحة إلى المقاومة السياسية والثقافية، دراسة تحليلية نقدية (1832-1954)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر.

- **المقالات:**

كروش خديجة، تناص الخطاب الصوفي الإسلامي في ديوان أسرار الغربة لمصطفى محمد الغماري، مجلة مقاربات، مجلد4، عدد2..

مبخوت بود واية، 2008، دور الطريقة الشيخية في مقاومة أولاد سيد الشيخ، مجلة المواقف، عدد خاص، جامعة معسكر، أفريل.

- بلغيث محمد الامين، 2000م، الشيخ بوعمامة القائد المتصوف، مجلة أصول الدين الصراط، السنة الأولى، العدد الثاني، ذو الحجة 1420هـ.

زوزو عبد الحميد، أضواء على ثورة بوعمامة 1881م، مارس1976م، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة الخامسة، العدد 31.

مياسي ابراهيم، 1996، دولر ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الإستعماري، حوليات جامعة الجزائر.

بسايح بوعلام، الثقافة الإفريقية طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، العدد 96، نوفمبر، ديسمبر، 1986.

- **المراجع الأجنبية**

1. Henry diuveyrie, La confrérie musulmane de Sidi Mohamed Ben Ali Essenoussi et ses domaine geographiques en l'année 1300 de hégerie, 1883 in BSGA de paris, 1884.
2. Trumlet, histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864, Alger, 1879.
3. Henri Garrot, Histoire général de l'Algérie, 1910.
   les Algerien musulmane et la France,- 1871 – 1919, T1, Paris.
4. Louis rinne, nos frontière saharienne, in revu africaine n°30-Année 1886, OPU, Alger, 1985.
5. Sari Djilali, l'inssurrection de 1881-1882, Société national d'édition et de difusion, Alger 1981.
6. E. Graulle, Insurrection de Bou-Amama, Avril ? 1881, Paris, 1905.